هيكل الاتصال و الفضاء الطوبيقي في الخطاب الانجيلي[*] (مقاربة سميائية)
الاصحاح 9 من انجيل يوحنا أنموذجا

د. خالدي سعاد:مخبر الدراسات الصحراوية، جامعة طاهري محمد بشار
بورطل زعراط جلول: تخصص اتصال و علاقات عامة

ملخص:

إن قارئ الإنجيل و المتمعن فيه يجده زاخرا كغيره من النصوص بجملة من العلاقات بين الشخصيات التي يتحدث عنها، و التي يوجد بينها اتصال في إطار فضاء معين، حيث تنتقل الشخصيات من فضاء إلى فضاء، و هذا الأمر يصحبه عمليات اتصالية. وبذلك نطرح الاشكالية التالية: ما علاقة الاتصال بالفضاء؟ و أيهما يؤثر على الآخر؟ و في أي جانب؟

للإجابة عن هذه الإشكالية استخدمنا المقاربة السميائية من خلال ثنائية الدال و المدلول السوسيرية و المربع السيميائي، في إطار الخطاب الإنجيلي بالتركيز على الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا و الذي يذكر فيه كيفية القبض على سيدنا عيسى و صلبه. أما فيما يخص الاتصال فسنركز على حركة هيكله.

و نهدف من خلال هذه الدراسة إلى فهم العلاقة بين الاتصال و الفضاء الذي يتم فيه، و كذلك التطرق إلى الخطاب الإنجيلي من منظور علمي موضوعي بعيدا عن الأحكام المسبقة، و المعالجة التقليدية له من حيث تعرضه للتحريف أم لا.

الكلمات المفتاحية: الاتصال، الفضاء الطوبيقي، الفضاء الإيطوبيقي، ثنائية الدال و المدلول، المربع السيميائي.

Abstract:

The Bible contains, as many other texts, a lot of relationships betweenthe characters it talks about, which have between them a communication in a special space and move from space to space and this is accompanied by communication processes. So, what is the relationship between communication and space? Which of them affects the other? And on any side.

This study seeks to understand the relationship between communication and space in which it is made, as well as to address the evangelical discourse from an objective and scientific perspective away from prejudices, and the traditional treatment of being distorted or not.

Keywords: Communication, Topic space, Utopic space, signified and meaning, Semiotic square.

I. تحديد المفاهيم:

إن تحديد المفاهيم يعتبر الخطوة الأساسية في هذه الدراسة، لأنه يعطي ربطة مفاتيح مفاهيمية تمكن من فهم السيرورة الفكرية المنهجية التي اتخذت لإنتاج هذه الدراسة.

1. مفهوم هيكل الاتصال و الفضاء:

لقد اعتمدنا في تحديدنا لمفهوم هيكل الاتصال على المفهوم الذي قدمه "مصطفى عشوي"[1] في تطرقه إلى أهمية الاتصال في تسيير المؤسسات، فقال عنه أنه: "... يتخذ أنماطا و أشكالا رسمية للهيكل التنظيمي الرسمي و تصبح حركة الاتصال مرتبطة بهذا الهيكل بحيث يتم الاتصال عموديا من أعلى إلى أسفل و من أسفل إلى أعلى، و أفقيا و ذلك من مستوى تنظيمي إلى مستوى تنظيمي آخر في نفس المستوى أو الدرجة"[2].

و في هذا المفهوم نجد بأن حركة الاتصال عموديا و أفقيا مبنية أو يحركها التراتبية التنظيمية، و بالتالي فإن ما يهمنا في هذا المفهوم هو حركة الاتصال و هيكله و لكن ليس من خلال التراتبية بل من خلال الفضاء الذي هو: "قاسم مشترك يعتبر من خلاله موضوعا مبنيا على الفاعل كمنتج و مستهلك للفضاء"[3].

و في إطار خطابي، ينقسم الفضاء إلى:

أ. **فضاء طوبيقي**: "المكان الذي يتمظهر فيه تركيبيا تحول التموضع بين حالتين سرديتين"[4].

ب. **فضاء إيطوبيقي**: "هو المكان الذي يحقق فيه البطل الانتصال و الأداء، و عليه، فإن الفعل المغير للذات و الجوهر لا يمكن أن يتجسد في إطار مكاني معين، فمكان الفعل هو اللامكان أي نفي للمكان بوصفه معطى ثابتا و قارا"[5].

و عليه فإن الآلية المفاهيمية التي سنشتغل بها هي ربط علاقة سببية بين المتغير الحركي الاتصالي المهيكل على أساس التغير و التحول على مستوى الفضاء الخطابي بقسميه الطوبيقي، و الإيطوبيقي فيما يخص التحول بين الفضاءين أو على مستوى الفضاء الواحد.

و من ثم يمكن تقديم المفهوم التالي: **الاتصال يتخذ أنماطا و أشكالا فضائية، أين تصبح حركة الاتصال مرتبطة بالفضاء، بحيث يتم الاتصال عموديا من أعلى إلى أسفل و من أسفل إلى أعلى عند وقوع التحول على مستوى الفضاء الواحد أو عند الانتقال من فضاء طوبيقي إلى فضاء إيطوبيقي أو العكس.**

و أفقيا: و ذلك عندما يتم الاتصال في فضاء واحد غير متحول طوبيقي أو عند التحول من فضاء إيطوبيقي إلى فضاء إيطوبيقي آخر.

2. مفهوم الخطاب الإنجيلي:

ينبغي أولا تحديد مفهوم الخطاب الذي هو: "وحدة تواصلية إبلاغية، متعددة المعاني، ناتجة عن مخاطب معين، موجهة لمخاطب معين، عبر سياق معين"[6].

أما الإنجيل حسب العقيدة المسيحية فهو: "الكتب الأربعة الأولى من كتب العهد الجديد تدعى الأناجيل، و كلمة إنجيل مشتقة من اللفظة اليونانية ... التي تعني الخبر السار أو البشرى. و الأناجيل فن من فنون الأدب الملهم خاص بالمسيحية دون سواها. فكل من الأناجيل هو في الأساس إعلان إيمان بالمسيح القائم من الأموات. كل من الأناجيل يهدف إلى إظهار ما تعنيه حياة يسوع للمسيحيين المؤمنين"[7].

بينما حسب العقيدة الإسلامية فهو: " الكتاب الذي أنزله الله وفقا للعقيدة الإسلامية على المسيح بعدما انزل التوراة على موسى ومؤيدًا لها، وموافقًا لها في أكثر الأمور الشرعية، يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل، ويدعو إلى عبادة الله وحده دون من سواه، وهو الإنجيل الذي أنزل على المسيح عليه السلام وانه قد تعرض للتحريف. وأما الإنجيل فهو الكتاب المقدس لدى المسيحيين و قد كتب أربع كتاب حياة المسيح مع أن كان كل منهم في بلد مختلف إلا إن الأربع أناجيل متشابهة: إنجيل يوحنا، مرقس، متى، لوقا"[8].

و بذلك فهذه الأناجيل تدور حول حياة سيدنا عيسى، و قد اخترنا من الأناجيل الأربعة انجيل يوحنا "الذي يقول التقليد بأن هذا الاخير من تأليف يوحنا، التلميذ الحبيب الذي ألفه، إلا أن العلماء لا يتفقون في أمر تاريخ هذا الإنجيل، فتتراوح السنين المقدرة بين الزمن الممتد من العام 65م إلى العام 90م، مع ترجيح التاريخ الأول، و إنجيل يوحنا ... ملئ بشهادات العيان، مما لا يصدر إلا عمن حضر الأحداث المذكورة"[9].

و من خلال مفهوم الخطاب و مفهوم الإنجيل يمكن وضع مفهوم للخطاب الإنجيلي من خلال الدمج بين المفهومين فنقول: **هو وحدة تواصلية إبلاغية، ناتجة عن كتبه الأناجيل الأربعة، و موجه إلى المؤمنين المسيحيين، في سياق إعلان الإيمان بعيسى عليه السلام.**

و من هذا المفهوم يمكن أن نسقطه على الإصحاح 19 من الخطاب الإنجيلي ليوحنا فيصبح: **وحدة تواصلية إبلاغية، ناتجة عن يوحنا، و موجهة إلى المؤمنين المسيحيين، في سياق إلقاء القبض على يسوع و صلبه بعد محاكمته.**

إذن هذا هو الخطاب الإنجيلي هو السياق الذي سندرج فيه مفهوم هيكل الاتصال و الفضاء.

II. التحليل السيميائي:

يعتبر هذا التحليل السيميائي للخطاب الإنجيلي، الوعاء أو السياق الذي أنتجت و وظفت فيه المفاهيم المحددة في الفصل الأول.

1. البنية السطحية:

سنعتمد في تحديد البنية السطحية من خلال استخراج العلامات المتعلقة بالفضاءين الطوبيقي و الإيطوبيقي بالاعتماد على مفهوم العلامة لدى دي سوسير (1857-1913)[10] المبني على ثنائية الدال و المدلول، فالدال هو الخطاب الإنجيلي، و المدلول هو هيكل الاتصال الناتج عن هذا الخطاب.

1) **الدال:** " ... و خرج بيلاطس[11] مرة أخرى إلى الجمهور و قال لهم: سأخرجه إليكم لتروا أني لا أجد فيه ذنبا!"[12].

المدلول:

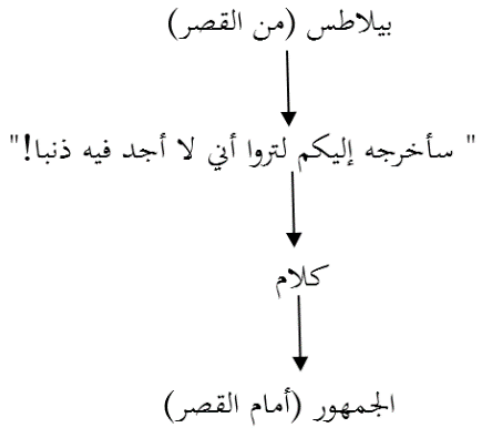

2) **الدال:** فقال لهم بيلاطس: "هاهو الإنسان!". فلما رآه رؤساء الكهنة و الحرس صرخوا: "اصلبه! اصلبه!"[13].

المدلول:

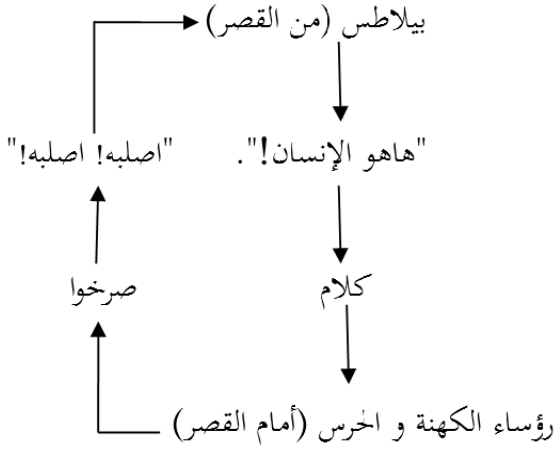

نجد في هذين الشكلين أن هيكل الاتصال عمودي في الأول نازل من داخل القصر حيث يوجد بيلاطس إلى خارج القصر حيث يوجد الجمهور، أما في الشكل الثاني فنفس الشيء بالإضافة إلى الهيكل العمودي الصاعد من أمام القصر إلى داخل القصر.

3) **الدال:** " و دخل إلى قصره و سأل يسوع: "من أين أنت؟" فلم يجبه يسوع بشيء."[14].

المدلول:

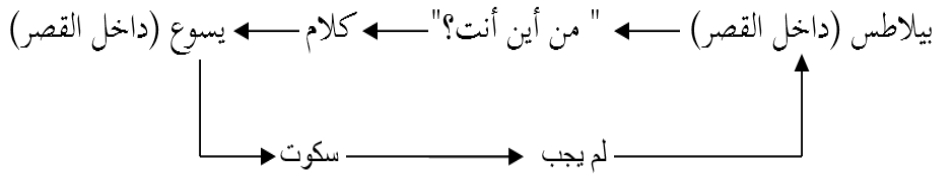

4) **الدال: فقال له بيلاطس: "أما تكلمني؟ ألا تعلم أن لي سلطة أن أطلقك، و سلطة أن أصلبك؟" فأجابه يسوع: ما كان لك علي سلطة قط، لو لم تكن قد أعطيت لك من فوق. لذلك فالذي سلمني إليك له خطيئة أعظم..."[15].**

المدلول:

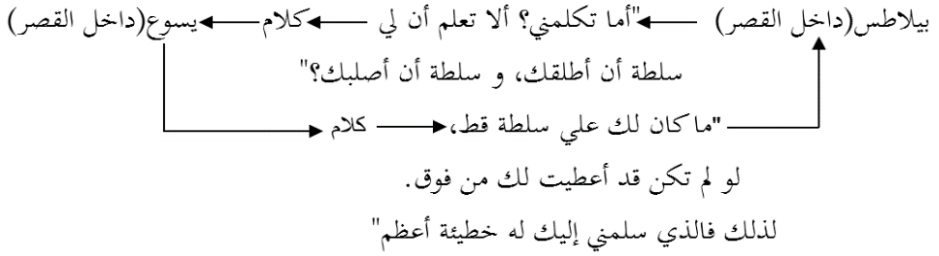

في الهيكلين الثالث و الرابع نجد الاتصال أفقي لأن كلا من بيلاطس و يسوع موجودان في نفس المكان و هو داخل القصر.

5) **الدال: و جلس على كرسي القضاء في مكان يسمى: "البلاط"، و بالعبرية "جباثا". و كان الوقت نحو السادسة في يوم الإعداد للفصح[16]. و قال بيلاطس لليهود: "هاهو ملككم!". فصرخوا: "خذه! خذه! اصلبه!"[17].**

المدلول:

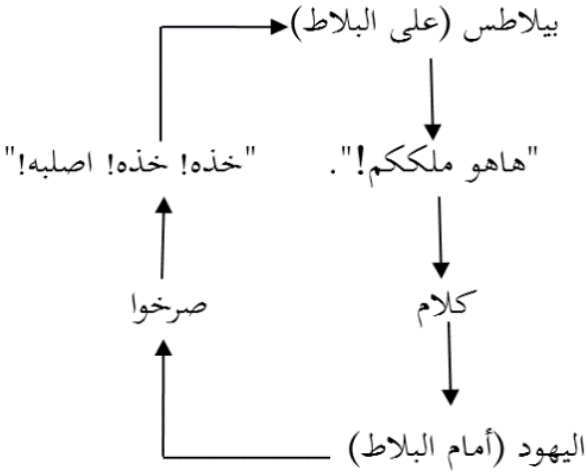

6) **الدال: فسألهم بيلاطس: "أأصلب ملككم؟" فأجابه رؤساء الكهنة: "لا ملك لنا إلا القيصر"[18].**

المدلول:

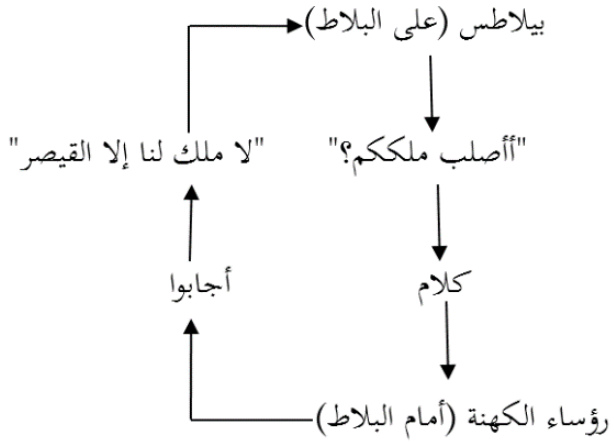

في الهيكلين الخامس و السادس نجد الاتصال عمودي من على البلاط ينزل إلى امام البلاط أو يصعد.

7) **الدال: و علق بيلاطس لافتة على الصليب مكتوب عليها: "يسوع الناصري ملك اليهود" [...] فقال رؤساء الكهنة لبيلاطس: "لا تكتب ملك اليهود، بل إن هذا الإنسان قال: أنا ملك اليهود". فرد بيلاطس: "ماكتبت فقد كتبت!"[19].**

المدلول:

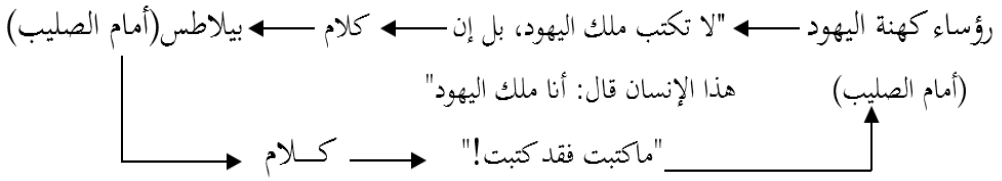

في الهيكل السابع نجد بأنه اتصال أفقي لأن كلا من المرسل و المستقبل موجودان أمام الصليب، رغم اختلاف التراتبية الإجتماعية بين بيلاطس و رؤساء كهنة اليهود.

8) **الدال: و لما صلب الجنود يسوع أخذوا ثيابه و قسموها إلى أربعة أقسام، فأخذ كل جندي قسما، و أخذوا القميص أيضا، و كان منسوجا كله من قطعة واحدة، بغير خياطة. فقال الجنود بعضهم لبعض: "لا داعي لتمزيقه، بل لنقترع عليه فنرى من يكسبه"[20].**

المدلول:

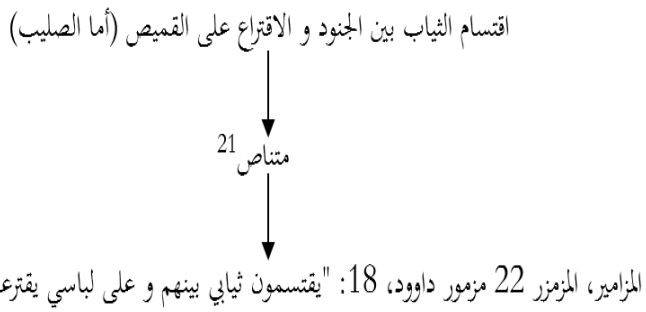

في الهيكل الاتصالي الثامن نجد الاتصال عمودي نازل من أمام الصليب الذي هو ضمن الفضاء الطوبيقي إلى ما جاء في مزامير داوود الذي هو ضمن الفضاء الإيطوبيقي و ذلك عن طريق المتناص الذي قرب بين المكان و ما يحدث فيه و اللامكان حيث تحقق الفعل.

9) **الدال: و هناك عند صليب يسوع، وقفت مريم أمه، و أخت أمه مريم زوجة كلوبا، و مريم المجدلية، فلما رأى يسوع أمه، و التلميذ الذي كان يحبه واقفا بالقرب منها، قال لأمه: "أيتها المرأة هذا ابنك!" ثم قال للتلميذ: "هذه أمك"[23].**

المدلول:

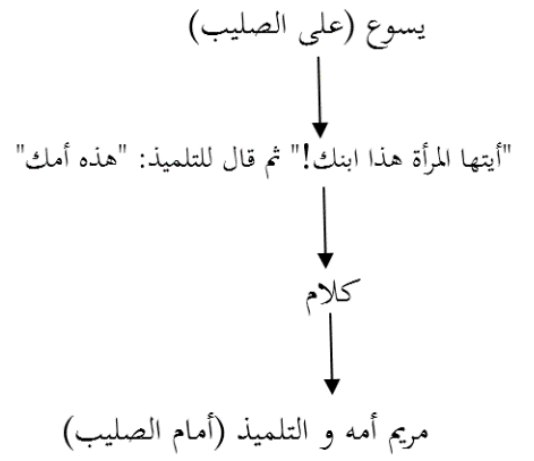

و هنا نجد هيكل الاتصال عمودي نازل من على الصليب إلى أمام الصليب.

10) الدال: بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد اكتمل، فقال: "أنا عطشان"[24].

المدلول:

عطش يسوع (على الصليب)

↓

متناص

↓

المزامير، المزمزر 69 مزمور داوود، 21: "و يجعلون في طعامي علقما و في عطشي يسقونني خلا"[25]

11) الدال: "فجاء الجنود و كسروا ساقي كلا الرجلين المصلوبين مع يسوع. أما يسوع، فلما وصلوا إليه وجدوه قد مات فلم يكسروا ساقيه"[26].

المدلول:

لم يكسروا ساقيه (على الصليب)

↓

متناص

↓

[المزامير، المزمزر 34 مزمور داوود، 20: "يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر."

الخروج، الاصحاح 12، 46: " في بيت واحد يؤكل. لا تخرج من اللحم إلى الخارج، و عظما لا تكسروا منه"][27]

12) الدال: "و إنما طعنه أحد الجنود بحربة في جنبه، فخرج في الحال دم و ماء"[28].

المدلول:

طعن يسوع (على الصليب)

↓

متناص

↓

زكرياء، الاصحاح 10،12: "و أفيض على بيت داوود و على سكان أورشليم روح النعمة و التضرعات فينظرون إلى الذي طعنوه، و ينوحون عليه كنائح على وحيد له، و يكونون في مرارة عليه كمن هو في مرارة على بكره"[29]

و هنا نجد بأن الهيكل 12،11،10 هو يكل اتصالي عمودي نازل مثلما سبق ذكره في الهيكل الاتصالي الثامن.

2. البنية العميقة:

لدراسة البنية العميقة لهذا الخطاب سنعتمد على "المربع السيميائي"[30]، من أجل تحديد الآلية التي تشكل هيكل الاتصال داخل هذا الخطاب الإنجيلي. و هذه الآليات تتمثل في ثلاثة فضاءات طوبيقية تستشف من خلال البنية السطحية و هي: القصر، البلاط، الصليب، بالإضافة إلى فضاء إيطوبيقي ناتج عن المتناص مع ما جاء في الكتاب المقدس.

1) الفضاء الطوبيقي:

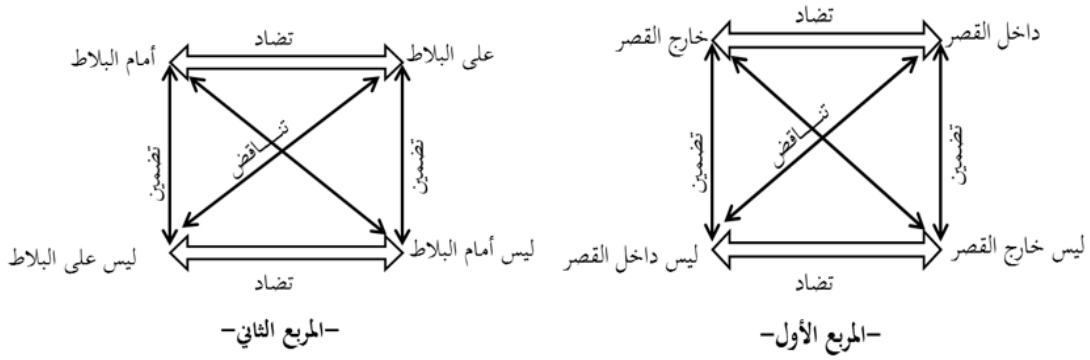

-المربع الأول-

-المربع الثاني-

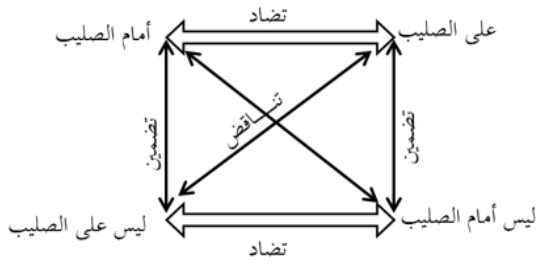

-المربع الثالث-

نجد في المربع الأول أن الوصل[31] هو على مستوى المكان و هو القصر، و الفصل[32]على أساس التواجد بالنسبة لهذا المكان (داخل/ خارج)، حيث يكون:

أ) **هيكل الاتصال عمودي:** عند الانتقال من فصل إلى فصل آخر في الفضاء الطوبيقي، و يكون الاتصال نازلا أو صاعدا على أساس إعطاء الأولوية و الدرجة الأعلى لداخل الفضاء الطوبيقي على خارجه.

ب) **هيكل الاتصال أفقي:** عندما نكون في وضعية الوصل في إطار الفصل (داخل/ خارج)، فيحدث هذا الاتصال في إطار القضية الكلية و التي تتناقض مع القضية الجزئية (داخل القصر≠ ليس داخل القصر) و ذلك بإسقاط القضية الجزئية و التي هي ضمن أو في علاقة تضمين على مستوى القضية الكلية (داخل القصر).

و نفس الشيء ينجر على المربعين الثاني و الثالث ما عدا أنه في المربع الثاني لا يوجد هيكل اتصالي أفقي، لأن كرسي البلاط واحد و يجلس عليه بيلاطس فقط، فلا يمكن أن يوجد شخصين في نفس المكان أو الفصل بالنسبة للفضاء الطوبيقي (على البلاط).

2) الفضاء/ الطوبيقي/ الإيطوبيقي:

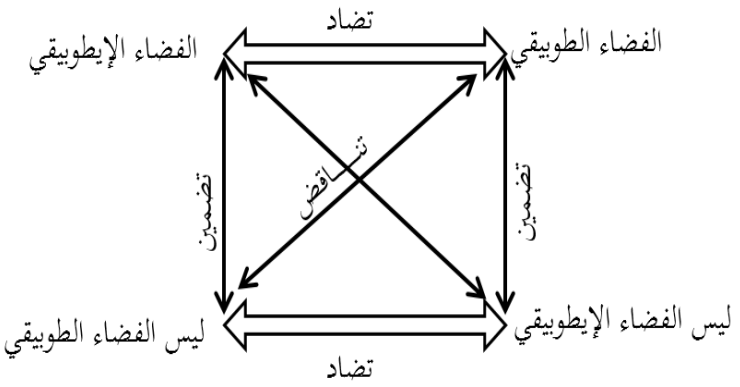

-المربع الرابع-

نجد بأن الوصل هو على أساس الفضاء و الفصل على أساس نوعية هذا الفضاء (طوبيقي/ إيطوبيقي)، فنجد بأن هيكل الاتصال عمودي عند الإنتقال من فصل إلى آخر في إطار الفضاء بصفة عامة، و يكون الاتصال نازلا أو صاعدا على أساس الزمن و الذي نقصد به: "... علاقته بهيئة التلفظ و هذا ما نسميه في المعنى الواسع زمن الخطاب. ينتظم هذا الزمن حول الحاضر، مفهوم ألسني خالص يدل على اللحظة التي نتكلم فيها"[33].

حيث وجدناه عمودي نازل لأنه ينطلق من اللحظة الأولى للخطاب الإنجيلي التي تكلم فيها إلى اللحظة الثانية من خلال المتناص بين ما يحدث في الفضاء الطوبيقي و ماجاء في الكتاب المقدس.

و يكون هيكل الاتصال أفقيا عند الانتقال من فصل إلى آخر في إطار الفضاء الإيطوبيقي و هو لا يوجد على مستوى البنية السطحية لأنه لم يوجد الخطاب الإنجيلي.

و من خلال ما سبق نخلص إلى أن:

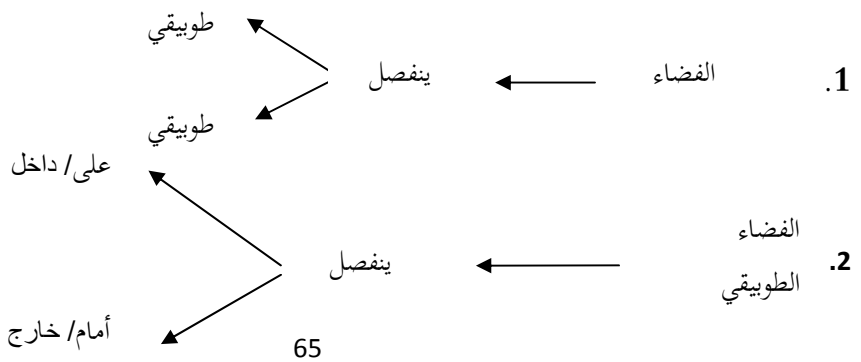

3. الفضاء الإيطوبيقي ← لم ينفصل

4. هيكل الاتصال ← ينفصل ← عمودي / طوبيقي

5. هيكل الاتصال العمودي ← ينفصل ← صاعد / نازل

و هذا ما أنتجته البنية العميقة لهذا الخطاب.

III. خاتمة:

في الأخير نجد أن مستوى الاتصال و حركته يتحدد سيميائيا من خلال ميكانيزم الفضاء الذي يقابل ميكانيزم التراتبية الإجتماعية في تحديد هيكل و حركة الاتصال داخل البنية الخطابية الإنجيلية.

كما أن الانتقال من الفضاء الطوبيقي إلى الفضاء الإيطوبيقي يغير و يؤثر على هيكل و حركة الاتصال من خلال ميكانيزم التناص.

هذا من ناحية، و من ناحية أخرى نجد أنه لم يتوفر الخطاب الإنجيلي الذي اخترناه على انتقال بين فضاء إيطوبيقي و فضاء إيطوبيقي آخر. و هذا يطرح التساؤل عن نوعية الهيكل أو الحركة الناتجة عن هذا الانتقال أو التناص بالنسبة للاتصال؟ و هل يمكن أن يقع تحول على مستوى الفضاء الإيطوبيقي وحده؟ و الذي لم ينفصل في هذا الخطاب. و ما أثر هذا التحول على حركة الاتصال و هيكله؟

كل هذه الأسئلة و غيرها تفتح المجال واسعا للبحث مستقبلا في العلاقة بين هيكل الاتصال و الفضاء المتواجد فيه، بعيدا عن كلاسيكيات هيكل الاتصال و التراتبية الإجتماعية.

IV. هوامش الدراسة:

* إن دراستنا هذه تتعامل مع الإنجيل على أساس أنه نص مكتوب فقط، تتوفر فيه شروط الخطاب، دون أي اعتبارات دينية أو عقائدية، فسنعتبره نص كأي نص تاريخي تناول فترة معينة من حياة شخصية دينية أثرت في العالم، و سواء كانت أحداثها حقيقية أم محرفة.

1. أستاذ بمعهد علم النفس بجامعة الجزائر.
2. عزي عبد الرحمن و آخرون، عالم الاتصال، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1992، ص 21.
3. انظر: بن مالك رشيد، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص: عربي- انجليزي- فرنسي، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 71.
4. المرجع نفسه، ص 240.
5. المرجع نفسه، ص 247.
6. عزام محمد، النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، المتواجد على الموقع: http ;//www.awu-dam.org يوم 2005/01/16 على الساعة 14:00.
7. ميشال اليسوعي توماس، مدخل إلى العقيدة المسيحية: تلا: حشيمة اليسوعي كميل، دار المشرق، بيروت، 1993، ص 33.
8. الكتب المقدسة في الاسلام، موقع وكيبيديا، المتواجد على الموقع https://ar.wikipedia.org/wi يوم 2017/06/30، على الساعة: 12:25.
9. ميشال اليسوعي توماس: مرجع سابق، ص 38.
10. مومن أحمد، اللسانيات: النشأة و التطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائرية، الجزائر، 2002، ص 118.
11. الحاكم الروماني في تلك الفترة.
12. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية3 من كتاب: الإنجيل: كتاب الحياة، ط1، دون دار نشر، دون مكان، 1996.
13. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية، 6،5، مرجع سابق.
14. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية 9، مرجع سابق.
15. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية9،10، مرجع سابق.
16. "عيد الفصح أو عيد الفطير، و هو عيد الربيع و أول أيامه 15 نيسان من السنة اليهودية" عن: المركز الثقافي لشركة فاميلي للمطبوعات: الموسوعة المنهجية الحديثة: الأديان، ط1، شركة فاميلي للطباعة و النشر، دون مكان، 2002، ص 102.
17. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية13،14،15، مرجع سابق.
18. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية15، مرجع سابق.
19. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية19،20،21،22، مرجع سابق.
20. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية23،24، مرجع سابق.

21. " متناص INTERTEXT هو مجموعة النصوص التي يمكن تقريبها من النص سواء كانت في ذاكرة الكاتب أو القارئ أو في الكتب"، عن: www.awu-dam.org //:http يوم 2005/01/16 على الساعة 14:00، مقال لـ: عزام محمد، النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

22. الكتاب المقدس: كتب العهد القديم و العهد الجديد، مترجم من اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في العالم العربي، دون مكان، 1980.

23. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية25،26،27، مرجع سابق.

24. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية28، مرجع سابق.

25. الكتاب المقدس: كتب العهد القديم و العهد الجديد، مرجع سابق.

26. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية32،33، مرجع سابق.

27. الكتاب المقدس: كتب العهد القديم و العهد الجديد، مرجع سابق.

28. الإصحاح 19 من إنجيل يوحنا، الآية34، مرجع سابق.

29. الكتاب المقدس: كتب العهد القديم و العهد الجديد، مرجع سابق.

30. كلود كوكي جان، السيميائية، مدرسة باريس، ترجمة: بن مالك رشيد، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2003، ص 101.

31. ينظر: بن مالك رشيد، مرجع سابق، ص 64.

32. المرجع نفسه، ص 48.

33. بن مالك رشيد، مرجع سابق، ص 223.